المجمع **10** (2016/1437)، 211-241

صدى رمضان في شعر شعراء القرنين السادس والسابع الهجريّين؛ دراسة موضوعيّة وفنيّة

مشهور عبد الرحمن الحبّازي*

تلخيص

تتناول هذه الدراسة صدى شهر رمضان في شعر شعراء القرنين السادس والسابع الهجريّين، وتُعنى بدراسة هذا الصدى موضوعيًّا وفنّيًّا.

وقد جاءت الدّراسة في مُقدّمة، وموضوعين رئيسين هما: الأول، الدّراسة الموضوعيّة، وجاءت في ثمانية محاور رئيسة هي: استقبال شهر رمضان بالفرح والسرور، وقدوم رمضان فرصة للتوبة، والصبر على مشاق الصوم، وبعض الأعمال في شهر رمضان، والأوزان الشعريّة التي اخترعها المسحِّرون، وبعض حلويات شهر رمضان، والاحتفال بقدوم عيد الفطر والتهنئة به، والضيق برمضان واستعجال نهايته. والآخر الدّراسة الفنيّة، جاءت في محورين رئيسين هما: الأسلوب واللّغة، والصورة الفنيّة.

واعتمدت الدّراسة مناهج عدّة منها: التاريخي في تتبع الشعر الذي قيل في وصف رمضان، وتحديد زمن حياة الشعراء، والوصفي والتحليلي في توضيح ما قاله الشعراء في رمضان.

وخلصت الدراسة إلى أنّ صدى شهر رمضان كان واضحًا في شعر شعراء حقبة الدّراسة في جوانب عديدة، وكانت ألفاظهم سهلة، ومعانيهم واضحة، وتشبيهاتهم مستمدّة من البيئة الرمضانية.

تقديم

شهر رمضان، شهر باركه الله، جلّت قدرته، بأن ابتدأ به نزول القرآن الكريم على سيد الخلق سيدنا محمد، صلّى الله عليه وسلم، فقال سبحانه وتعالى:﴿شهرُ رمَضَانَ الذي أُنْزِلَ فيْهِ القرآنُ﴾[1]، وأنْ جعل فيه ليلة القدر، التي هي خير من ألف شهر، قال تعالى:﴿إنّا أَنْزَلْناهُ في لَيْلةِ القَدْرِ، ومَا أَدْراكَ ما لَيْلةُ القَدْرِ، لَيْلةُ القَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾[2]. وقد وردت أحاديث نبوية شريفة كثيرة في فضل شهر رمضان المبارك، وبركته، وشرفه، وأنه تاج بين شهور العام[3]. روى مسلم عن أبي هريرة، رضي الله عنه، أنّ رسول الله، صلّى الله عليه وسلم، قال: "كلُّ عَمَلِ ابنِ آدمَ يُضَاعَفُ، الحَسنَةُ بعَشْرِ أَمْثالِها، إلى سَبْعمِائة ضِعْفٍ، قالَ الله عزَّ وجلَّ: إلاّ الصَّوْمَ، فإنّهُ لي، وأَنا أَجْزِي بِه، يَدَعُ شَهْوَتَهُ، وطَعامَهُ مِنْ أَجْلي، للصَّائمِ فَرْحتانِ: فَرْحةٌ عِنْدَ فطْرِهِ، وفَرْحةٌ عنْدَ لقاءِ رَبّهِ، ولَخَلُوفُ فيْهِ

---

* محاضر في جامعة القدس العربية.

[1] البقرة، 2/185.

[2] القدر، 97/1-3.

[3] انظر: الصابوني، الفقه الميسّر، 1/10.

أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ مِنْ رِيحِ المِسْكِ".[1] وروى البخاري عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النّبي، صلّى الله عليه وسلم، أنّه قال: "مَنْ صَامَ رَمَضانَ إيمْاناً واحْتِساباً غُفِرَ لَهُ ما تقدَّمَ مِنْ ذنْبِهِ".[2]

وقد فرض الله، سبحانه وتعالى، صيام رمضان على المسلمين في السنة الثانية للهجرة النبوية الشريفة، بعدما أصبح للمسلمين دولة يحتمون بها، ورسخ الإيمان في قلوبهم، فأصبحوا أكثر قدرة على تحمُّل مشقّته والصبر عليها، قال تعالى:﴿يا أَيُّها الذينَ آمنَوُا كُتِبَ عليْكُمُ الصَّيامُ كما كُتِبَ علَى الذين مِنْ قَبْلِكُمْ لَعلَّكُمْ تَتّقوُنَ﴾.[3]

تعريف رمضان لغة واصطلاحاً

رمضان مأخوذ من الرَّمْض: وهو شدّة الحرَّ، ورمضَ الصّائم: حرّ جوفه من شدّة العطش، ورمضَ نَصْلَ السيف: حدّده ودقّقه بأن يجعله بين حجرين، ثم يدقّه ليرقَ. وكلّ حاد: رميض.

وقد أُخذ اسم الشهر من هذا المعنى اللغوي، قال ابن دريد: لما نقلوا أسماء الشهور عن اللغة القديمة سمّوها بالأزمنة التي هي فيها، فوافق رمضان أيام رمض الحرّ، وشدته فَسُمِيَ به. وقيل: أُخذ من رمض الصائم إذا حرّ جوفه من شدّة العطش. وقيل: من رَمْضِهِ الذّنوب: أي حرقها بالأعمال الصالحة. وقيل: من رَمْضِ نصل السيف: أي ترقيقه بالدقّ بين حجرين، وما فيه من مشقة يقاسيها الصائمون، ويصبرون عليها. وجمع رمضان: رَمَضَاناتٌ، ورَمَاضِينُ، وأَرْمِضاءُ، وأَرْمِضَةٌ، وأَرْمُضٌ[4].

وكان رمضان في الجاهلية يُسمّى الناتق، فيقال: أنتقَ، صام ناتقاً، أي شهر رمضان، وقال ابن سيدة: وناتق من أسماء رمضان[5].

أما رمضان في الاصطلاح، فهو: الشهر الذي فُرض فيه الصّيام على المسلمين في السنة الثانية للهجرة.

تعريف الصوم لغة واصطلاحاً

الصوم لغة: الإمساك عن الشيء والترك له، وقيل للصّائم: صائم لإمساكه عن المَطْعَم، والمَشْرَب، والمَنْكح. والصَّوم: ترك الطّعام، والشّراب، والنكاح. والصبر: يصبر الإنسان على الطعام، والشراب، والنكاح[6].

---

[1] مسلم، الصحيح، 2/807.

[2] ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، 4/115.

[3] البقرة، 2/183.

[4] انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة رمض.

[5] انظر: المصدر نفسه، مادة نتق.

[6] انظر: المصدر نفسه، مادة صوم.

الصّـوم اصـطلاحاً: الصـوم في الشـرع هو: "الإمسـاك عن المفطّرات من طلوع الفجر إلى غروب الشمس مع النيّة".[1] وهو: "الإمساك نهارًا عن جميع أنواع الطعام، والشراب، والشهوة الجنسية، من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، بنيّة العبادة لله عزَّ وجلَّ".[2]

صدى شهر رمضان في الشعر

يَثْبُتُ دخول شـهر رمضـان برؤية هلاله، الذي يترقّبه المسـلمون في نهاية شـعبان، فإن ثبتت رؤيته، يبدأ رمضـان، وتبدأ به فريضـة الصـوم، وما يرافقها من صـلوات، وأنواع العبادات، والعادات، التي تشـكّلت في المجتمعات الإسـلامية عبر القرون. وتثبت نهاية رمضـان برؤية هلال شـوال، الذي يترقّبه المسلمون في نهاية رمضـان، إذ ينتهي شـهر الصـوم بكلّ ما فيه من صـلوات، وعبادات، وعادات. ويهنئ النّاس بعضهم بعضًا بأنْ أعانهم الله، سبحانه وتعالى، على صيام رمضان، وقيامه، وأوصلهم إلى الفرحة الأولى للصـائم. فعن أبي هريرة رضـي الله عنه قال: قال رسـول الله، صلّى الله عليه وسلم: "صُومُوا لِرُؤيتهِ، وأَفْطِروا لِرُؤْيته، فإنْ غُبِّي عليكم الشَّهر، فَعدُّوا ثلاثين".[3]

وقد ترك شـهر رمضـان المبارك أثرًا واضـحًا في الشّـعر العربي منذ العصـر الإسـلامي الأول، وكان ذلك الأثر يمتدّ، ويتضح، أو يتقلص ويتراجع وفقاً لعوامل عديدة، وفي القرنين السـادس والسـابع الهجريين/ الثاني عشـر والثالث عشـر الميلاديين، لاحظت - من خلال قراءتي في دواوين عدد من الشـعراء، وكتب الأدب، وكتب التراجم- وجود آثار واضـحة، يمكن أن تشـكّل مادة جيدة للكتابة العلمية فيها؛ فقد اهتم الشعراء برصد التفاعلات المجتمعية مع شهر رمضان المبارك، وتصويرها؛ فاسـتعدوا لاسـتقباله، واحتفلوا بقدومه، وحرصـوا على صـيامه، وقيامه، والقيام بالأعمال التي تُقرّبهم من الله، سبحانه وتعالى، وصلّوا صلاة التراويح، وقاموا الليل، وترّقبوا ليلة القدر، واعتكفوا في العشر الأواخر من رمضان ، وتسحّروا، وتسامروا في حدائق منازلهم، وتدارسوا العلوم الشرعية في أروقة المساجد، وساحاتها، وترقّبوا يوم عيد الفطر السعيد، وهنّأوا بعضهم بعضًا، بأنْ أتم الله عليهم الصـحة والعافية، فقاموا الشـهر المبارك حقَّ قيامه، وخرجوا منه وقد تزوّدوا بزاده الوفير، فازدادوا تقوى، وتهذّبت نفوسـهم، بأنْ اعتادت على حبّ الخير والأمان، والتضـامن والتعاون، وتجدّدت حياتهم بما حقّقوه من فوائد صحية.

وقد درسـتُ صـدى شـهر رمضـان المبارك، في هذا البحث، وفقا لما عثرت عليه من شـعر يشـهد بوجود ذلك الأثر في هذا الجانب من حياة المجتمع أو ذاك. وقد جاءت دراستي على النحو الآتي:

[1] سابق، السيد، فقه السنة، م1/431.

[2] الصابوني، مرجع سابق، 2/43.

[3] مسلم، مصدر سابق، 2/762.

أولاً- الدراسة الموضوعيّة

درست صدى شهر رمضان في شعر شعراء القرنين السادس والسابع الهجريين موضوعيًّا من خلال ثمانية محاور رئيسة، وفق الآتي:

1- استقبال شهر رمضان بالفرح والسرور

كان المسلمون يعدّون أنفسهم لاستقبال شهر رمضان المبارك، منذ أن يوشك شهر شعبان على الانصرام، سواء أكان ذلك في ترك المعاصي، أم تهيئة النّفس للتوبة، وطلب المغفرة من الله، سبحانه وتعالى، راجين إيّاه، جلّت قدرته، أن يكون جزاؤهم، على صيامه وقيامه، الجنة، أو تهيئة المستلزمات الخاصة به من: طعام، وشراب، وغيرهما.

وقد ظهر أثر قدوم الشهر الفضيل في شعر شعراء القرنين السادس والسابع الهجريّين، من خلال اتخاذ عدد منهم المناسبة فرصة لمدح الخلفاء، والحكام، والقضاة، والوزراء وغيرهم من أهل الحكم؛ وذلك تقرباً منهم، ولنيل عطاياهم، وجوائزهم.

أ. تهنئة الخلفاء

هنأ الشعراء الخلفاء العباسيين بمقدم شهر رمضان المبارك، وقد جاءت تهانيهم في قصائد مدحية. ومِمّا هُنِّئ به الخلفاء العباسيون بمناسبة شهر رمضان المبارك: قول محمد بن هبة الله بن حيدر البغدادي المعروف بابن المليحة (المتوفى أواسط القرن السابع الهجري) من قصيدة مدح بها الخليفة العباسيّ المستنصر بالله، وهنأه بقدوم شهر رمضان[1]:

واللهُ يسعدُهُ بشهرِ الصّومِ فالدّ نيا وأَهْليها بهِ قَدْ أُسعدا
وإذا حوى أجرَ الصّيامِ مُضاعفًا باليمنِ فالإكمالَ فيه تَعبّدا
أبدًا على مرِّ اللّيالي لابسًا ثوبَ البقاءِ مَدَى الدُّهورِ مُجدَّدا

فالشاعر هنا يهنئ الخليفة بقدوم شهر رمضان؛ فيدعو الله أن يمنحه السعادة في الشهر المبارك جزاء إسعاده رعيته، وأن يضاعف له أجر الصيام جزاء عبادته الكاملة، وأن يجدّد أجره مدى الدهر.

وقول الشاعر علي بن عمر بن قزل (ت 656هـ) من قصيدة مدح بها الخليفة العباسي المستعصم بالله، آخر خلفاء بني العباس في بغداد، وهنأه بمقدم شهر رمضان المعظّم[2]:

فتَهَنَّ يا ملكَ البريَّةِ كلِّها إقبالُ شَهْرِ تلاوةٍ وَصِيامِ

[1] ابن الشعّار، قلائد الجمان، م6ج7/236.

[2] ابن قزل، الديوان، ص10.

رمضـــانُ جلَّ جلالُ مَنْ قدْ خَصَّـــهُ بخصـــائصِ التّفضيلِ والإكـــرامِ
وافَى إلـيـكَ مُـبَشِّـــراً ومـخـبِّـراً بســـعـادةٍ مـوصـــولـةٍ بـدوامِ
خيرُ الشّـــهورِ وأنـتَ يـا خيرَ الورى لـلـنّـاسِ خـيرُ خـلـيـفَـةٍ وإمـامِ

فالشـاعر هنا يهنئ الخليفة بمقدم شـهر رمضـان، الذي كان يعدّه شـهر تلاوة القرآن، والصـيام، ويفضـله على غيره من الشـهور، فيعمل فيه المكرمات، ويجعل قدوم هذا الشـهر بشـارة للخليفة بدوام السـعادة، ثمّ يأخذ الصـفة التفضـيلية للشـهر على شـهور السـنة، ويضـفيها على الخليفة الممدوح.

ب. تهنئة السلاطين

كما مدح الشـعراء خلفاء بني العباس، وهنأوهم بقدوم شـهر رمضـان المبارك، مدحوا سـلاطينهم، الذين حكموا بعض الولايات الإسـلامية باسـمهم، وهنأوهم بالشـهر الفضـيل، وممّن مدحهم الشـعراء، وعثرت على شـعر في تهنئتهم بشـهر رمضـان، السـلطان نور الدّين محمود بن عماد الدين زنكي (ت 567هـ). قال ابن منير الطرابلسـيّ، أحمد بن مفلح (ت 548هـ) من قصـيدة مدح بها نور الدّين زنكي في شهر رمضان سنة (543هـ)، فأضفى عليه بعض خصائص الشهر، وفضائله[1]:

فِـداكَ مَـنْ صـــامَ ومَـنْ أَفـطَـرَا ومَنْ سَـــعَى سَـــعْـيـكَ أو قَصَّـــرا
ومَـا الـورى أهـلاً فـتُـفْـدَى بهـم وهَـلْ يـوازي عَـرَضٌ جَـوْهَـرا

فالشـاعر هنا يفتدي ممدوحه بالصـائمين، ومَنْ أنهوا صـيامهم، والسـاعين بين الصّـفا والمروة معتمرين أو حاجين، ومَنْ قد أنهوا سـعيهم، لا بل يرى أنَّ الناس كلّهم ليسـوا أهلا ليفتديه بهم، فحالهم منه كحال عرض الأشياء الزائل من جوهرها الباقي.

ثم يتابع مدحه فيقول:

تَصـــرَّم الشّـــهرُ الـذي كُنْـتَ في أوقـاتـهِ مِـنْ قَـدْرِهِ أَشْـــهَـرا
جِـهَـادُ لـيْـلٍ في نـهـارٍ، فَـفُـزْ إذْ كُنْـتَ فيـه الأصـبرَ الأَشْـكَرا

وهنا يبدي ابن منير أسـفه على قرب نهاية الشـهر الفضـيل، الذي كان نور الدّين بأعماله الصّالحة فيه، قد شُهرَ أكثر من الشهر نفسه، فكان يُجاهد في النهار بالصبر على مشاق الصيام، والامتناع عن ملاذ الدّنيا، وطيّباتها. ويجاهد في الليل بالقيام، والصـلاة، والذكر، وهو بذلك الأكثر صبراً بين العباد، والأكثر شكراً لله، سبحانه وتعالى، على ذلك. وهنا يلاحظ حسن توظيف الشاعر لواحد من المعاني اللغوية للصوم، وهو معنى: الصبر على عدم تناول الطعام، والشراب، والنكاح.

[1] ابن منير الطرابلسي، شعر ابن منير، ص96-95.

وقال الشاعر الأمير أسامة بن منقذ (ت 584هـ) من قصيدة مدح بها نور الدّين زنكي، وأضفى عليه فضائل الشهر المبارك[1]:

سُلطانُنا زاهدٌ والنّاسُ قَدْ زَهِدُوا لَهُ فكلٌّ على الخَيراتِ مُنْكَمِشُ
أيامُهُ مثلُ شهرِ الصّومِ خاليةً عن المعاصي وفيها الجوعُ والعطشُ

فابن منقذ هنا يمدح نور الدّين بفضائل الشهر المبارك، فأيام حكمه لا فُسوق، ولا فُجور، ولا معاصي فيها كما الشهر الفضيل، ويسودها الزّهد، والتقشف كما نهار رمضان.

ومدح العماد الأصفهاني (ت597هـ) في الرابع من شهر رمضان سنة (570هـ) السلطان صلاح الدّين يوسف بن أيوب عندما مكّنه الله، سبحانه وتعالى، من فتح قلعة بعلبك، فقال[2]:

فتحٌ تَسَنّى في الصّيام كأنّنا شُكْرًا لِمَا مَنَحَ الإلهُ صيامُ
مَنْ ذا يَرَى في الصّومِ عيْدَ سَعادةٍ حلّت لنا، والفطرُ فيه حرامُ

فقد وظّف العماد الأصفهاني مجيء الفتح في شهر رمضان أفضل توظيف، إذ جعلهم صيامًا شكراً لله، جلّت قدرته، على تهيئة فتح بعلبك، ثم يتساءل، متعجبًا ومُكْبرًا الحدث، حول إمكانية حدوث عيد يسعد فيه الناس في رمضان، وعمّا إذا كان هذا العيد حلالاً للمسلمين، فيما الإفطار فيه حرام.

وقال الشاعر علي بن عمر بن قزل (ت 656هـ) من قصيدة مدح فيها السلطان الملك الناصر يوسف بن العزيز محمد بن الظاهر غازي بن صلاح الدّين الأيوبي (ت659هـ)، وهنأه بقدوم شهر رمضان[3]:

أَهْلاً بشَهْرِ الصِّيامِ مِنْ شَهْرٍ ماحِي الْخَطايا مُضَاعفِ الأجرِ
شرَّفهُ الْقادِرُ الجليلُ بِمَا أَنْزلَ فيْهِ مِنْ لَيْلةِ القَدْرِ
شَهْرٌ لَهُ الفَضْلُ والفخَارُ كما لِيوُسفَ الفَضْلُ بالنَّدى الغَمْرِ

هنا يعدّد ابن قزل صفاتِ شهر رمضان، وفضائله، مُرَحِّبًا به، ثم يجعل الشهر الفضيل يفخر بصفاته كما يحق للملك الممدوح أن يفخر بجوده، وعطائه.

[1] أبو شامة المقدسي، الروضتين، 1/229؛ ابن أبي عذيبة، إنسان العيون، ص90.

[2] ابن واصل، مفرّج الكروب، 2/30.

[3] ابن قزل، مصدر سابق، ص22.

ج. مدح الوزراء

مدح الشعراء الوزراء، وهنأوهم بمقدم شهر رمضان المبارك، وأضفوا عليهم بعض صفات الشهر الفضيل. قال هبة الله بن الرشيد جعفر المعروف بابن سناء المُلك (ت 608هـ) من قصيدة مدح بها عبد الرحيم البيسانيّ المعروف بالقاضي الفاضل، وزير صلاح الدّين الأيوبي، وهنّأه بمقدم شهر رمضان المبارك[1]:

تَهنَّ بهذا الصّومِ يا خَيْرَ صَائرٍ إلى كُلِّ ما يَهْوى ويا خيرَ صائمِ
ومَنْ صامَ عن كُلِّ الفَواحشِ عُمْرَهُ فأهونُ شيءٍ هَجْرُهُ لِلمَطاعمِ

فابن سناء المُلك يهنئ القاضي الفاضل، خير الصائمين، بمقدم شهر رمضان، ويبارك له هذا المقدم، مُعْلمًا الناس بأنّه مهما طال عمره، يصوم عن الفواحش، وعليه فإنّ صيامه عن المطاعم أهون شيء عنده. أي أنه اعتاد على مرضاة الله، بالامتناع عن المعاصي، فيسهُل عليه الامتناع عن المطاعم إرضاء لله، سبحانه.

وقال الشاعر محسن بن فارس المصري (ت 610هـ) من قصيدة مدح بها الوزير الصاحب عبد الله بن علي الدميريّ، وهنّأه بشهر الصوم، شهر رمضان المبارك[2]:

صِلِ الشَّهْرَ بالصّوَمِ المجدَّدِ والفطْرِ وعدّدْهُ أعوامًا إلى مُنتهى العُمُرِ
وكُنْ واحدًا في أهلهِ مثلما غدَتْ وحيدةَ ألفٍ مثلهُ ليلةُ القدرِ
وشنِّفْهُ بالدّينِ الذي أَنْتَ تاجُهُ وشرّفْهُ بالذكرِ الذي منكَ في الخيرِ
وأَوْدِعْهُ ما أودعتَهُ من محاسنٍ تبسّمَ منها جوهرُ الحمدِ عن ثغرِ
لكَ اللهُ من مولى تهنّى بكونهِ شهيرَ المعالي كلَّ يَوْمٍ مِنَ الشّهرِ

فالشاعر هنا يهنئ الوزير الصاحب الدميريّ، ويدعو الله له بأن يمنحه الصّحة، والقدرة على صيام رمضان، والاحتفال بعيد الفطر مدى عمره، وأن يكون في ذلك فريدًا فرادة ليلة القدر، وأن يبقى تاجا للدّين، كثير الذكر، والحمد لله، وأن يدّخر أعماله الحسنة في هذا الشهر المبارك، وأن يكافئه الله، سبحانه، على ما يقوم به من أعمال صالحة، في كلّ أيام الشّهر، لا في ليلة القدر فحسب.

[1] العماد الأصفهاني، خريدة القصر: قسم شعراء مصر، 1/76.

[2] ابن الشعار، مصدر سابق، م3ج4/167.

د. مدح القضاة

مدح بعض الشعراء القضاة، وقادة الجيوش، والعلماء، وهنأوهم بشهر رمضان المبارك، قال ظافر بن القاسم الجذامي المعروف بظافر الحدّاد (ت 528هـ) من قصيدة مدح بها قاضي الإسكندرية، وهنأه بقدوم شهر رمضان[1]:

شَهْرُ الصِّيامِ بِكَ المُهنا إذْ كانَ يُشْبِهُ مِنْكَ فَنّا
مَا سَارَ حَوْلاً كامِلاً إلاّ لِيَسْرِقَ مِنْكَ مَعْنى
فَرَأى هِلالَكَ مِنْ مَحـ لِّ هِلالِهِ أَعْلا وأَسْنى
بَهَرَتْ محاسِنُكَ الوَرى فأعادتِ الفُصَحاءَ لُكْنا

فظافر الحداد هنا، يُبالغ في مديحه قاضي الإسكندرية، فيجعل شهر رمضان يهنأ بوجود شبه بينه وبين القاضي، فهو سار سنة كاملة ليأخذ صفة من صفات القاضي، ولما رآه، وجده أعلى مكانة منه، ليس ذلك فحسب، بل إنّ محاسن القاضي بهرت الناس، فتحوّل فُصحاء النّاس إلى لُكنٍ غير قادرين على النطق السليم.

وقد اعتبر محمد زغلول سلام هذه الأبيات من شعر "الاستجداء والتطفّل على موائد السلطان ومجالسه، وهي أخلاط من الملق والرياء والمبالغة في التعظيم والإجلال"[2]. وأرى أنّه ذهب في ذلك مذهبا بعيدا، فظافر الحداد لم يتجاوز في مدح ممدوحه ما كان سائدًا في عصره، أو العصور السابقة لدى كثير من الشعراء في المبالغة بمدح ممدوحيهم. بل أين هو من سابقه ابن هانئ الأندلسي عندما مدح الحاكم بأمر الله العبيديّ، ولاحقه عمارة اليمنيّ في مدحه الخلفاء العبيديين؟!.

2- قدوم رمضان فرصة للتوبة

عدَّ كثير من المسلمين شهر رمضان فرصة مناسبة للتوقّف عن اقتراف المعاصي من: شرب، وفسق، وسرقة، وغيرها من الأعمال والممارسات الخارجة عن قواعد الدّين الإسلاميّ، والتوبة لله، سبحانه وتعالى. وقد سجّل شعراء هذه الحقبة الزمنية بعض هذه الممارسات، التي أقدم عليها بعض معارفهم، فهذا الشاعر ابن سناء الملك (ت 608هـ) يُسجل - بسخرية - في إحدى قصائده توبة حكيم من حكماء عصره عن شرب الخمر، مع قدوم شهر رمضان، يقول[3]:

[1] العماد الأصفهاني، مصدر سابق، 6-1/5.

[2] سلام، محمد زغلول، الأدب في العصر الأيوبي، ص270.

[3] ابن سعيد المغربي، النجوم الزاهرة، ص288.

سَـمِعْتُ حديثاً لَيْتَني مَا سَـمِعْتُهُ فَـعِـنْـديَ مِـنْـهُ مَـقْـعَـدٌ ومُـقـيْـمُ
بـأنَّ الحكيمَ الآنَ قَـدْ هجرَ الطّلا وتـابَ، فَقُلْنـا مـا الحكيمُ حَكيمُ
وكَمْ مِنْ يدٍ عنْدَ الحكيمِ لكأْسِـهِ غـدَتْ، ولَـهـا حَقٌّ علَـيْـهِ عَـظيـمُ

ومنها:

وَطَمَّـنـنَي إبـلـيْـسُ حِـيْـنَ عَـتـبـتُـهُ بـأنْ قـالَ: هـذا الأمْرُ لَيْسَ يَـدومُ
إذا ما انقَضَى شَـهْرُ الصِّيامِ فإنَّني بتَحْليـلِ نـاموسِ الحكيـمِ زَعـيـمُ

يُستدل من القصيدة التي سجّل فيها ابن سناء الملك خبر توبة هذا الحكيم عن شرب الخمر، عندما قارب شهر رمضان على البدء، أنّ ابن سناء الملك وجد الخبر، الذي نُقِلَ إليه عن توبة هذا الحكيم خبرًا عظيمًا، لا يستطيع تصديقه، حتى إنّه يكادُ ينفي عنه الحكمة، وذلك لإدمان ذلك الحكيم على الشّرب، والخلاعة، والمجون، ويُخَفِّف ابن سناء الملك من شدّة وقع الخبر على نفسه، بأنّ إبليس طمأَنَهُ أنّ هذه التوبة مؤقتة ومحدَّدة، فهي تنتهي بانتهاء شهر رمضان.

3- الصبر على مشاق الصوم

الصبر من معاني الصوم اللُّغوية، إذ يصبر الصَّائم على الامتناع عن شهواته في شهر رمضان، وكان ممّا يصبر عليه الصائم طول النهار، شدّة الحرّ، وبخاصة عندما يأتي شهر رمضان في فصل الصيف، في شهري تموز وآب. وقد تذمّر بعض الشعراء من مجيء رمضان في شهر آب فذمّ هذا الشهر لمجيء رمضان فيه. مع ملاحظة أنّه تجنّب ذم شهر رمضان، تأدُّبا مع بركة الشهر، وقُدسيته.

وهذا الشاعر علي بن محمد بن رستم المعروف بابن الساعاتي (ت 604هـ) يُبيِّن ضجره، وضيقه بشهر آب؛ فيذُمه، لا بل يهجوه؛ فريحُه حارَّة، وهو يُلحق بالصائم عذابًا شديدًا، ولا ظلَّ فيه يقي الصائمين حرّه، وهو يُصيبهم بالحزن والمصائب، وهو نارُ الجحيم، ولا كرم فيه. لكنّه يُبيّن صبره على مشاق الصَّوم فيه طمعًا في النّعيم، الذي يأمل الحصول عليه من الله، سبحانه وتعالى، قال[1]:

قَـبَّـحَ اللهُ آبَ مـا آبَ شَـهْـرًا وابـتـلانـا بـمَـا بِـهِ مِـنْ سَـمـومِ
كُـلُّ يـومٍ بـه عَـذابٌ أليـمٌ وَهْـوَ يُـنجي مِنَ الـعَـذابِ الأليـمِ
أَيُّ شـهـرٍ أظـلَّ لا وارفَ الـظِّـلْ لِـعَـلَـيْـنـا ولا رَقـيـقَ الـنَّـسـيـمِ
طـالَ فهو الأسـى، وذخرٌ فمـا أَشْ بَـهَ أَعـجـازَهُ بصَـدْرِ الـكَـظـيـمِ
وجبَ الصَّـومُ فيهِ شـرعًا فصُـمْنا في جَحيْمٍ رجَـاءَ قُـرْبِ الـنَّـعـيـمِ
لَـمْ يـكُـنْ عَـهْـدهُ كـريـماً ولـكـنْ نَـا حَـفْـظـنَـاهُ لـلـمـقَـامِ الـكـريْـمِ

[1] ابن الساعاتي، الديوان، 2/399.

4- بعض الأعمال في شهر رمضان

اعتاد المسلمون في شهر رمضان المبارك، القيام بعدّة أعمال لا يقومون بها إلاّ في هذا الشهر المبارك، ومن تلك الأعمال:

أ. صلاة التّراويح

التّراويح: جمع ترويحة، وهي المرّة الواحدة من الراحة، والترويحة في شهر رمضان سميت بذلك لاستراحة القوم بعد كلّ أربع ركعات[1]. وصلاة التّراويح سنة مؤكدة، أقامها الرّسول، صلّى الله عليه وسلم، في بعض الليالي، وواظب عليها المسلمون من بعده، إذ يجتمع المسلمون في كلّ ليلة من شهر رمضان بعد صلاة العشاء، ويصلّي بهم إمامهم خمس ترويحات، كلّ ترويحة أربع ركعات بتسليمتين، يجلس بين كلّ ترويحتين مقدار ترويحة، ووقت صلاة التّراويح يمتدّ ما بين العشاء إلى طلوع الفجر. ومن السنة ختم القرآن فيها مرّة واحدة.[2]

وصلاة التّراويح هي: قيام ليل رمضان، وهي أَمرٌ مُستحب، ومرّغب فيه، فقد روى أبو هريرة، رضي الله عنه، قال: كان رسول الله، صلّى الله عليه وسلم، يُرَغِّبُ في قيامِ رمضان، من غير أن يأمرهم فيه بعزيمة: "مَنْ قامَ رَمضانَ إيمانًا واحتسابًا غُفِرَ لَهُ ما تقدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ".[3] وكان المسلمون في القرنين السادس والسابع الهجريين يحرصون على أداء صلاة التراويح جماعة، ويروى من طرائف الشاعر يحيى بن عبد العظيم المعروف بالجزّار (ت 675هـ) أنّه بات ليلة في رمضان عند الوزير الصاحب بهاء الدّين بن حنّا[4]، فصلّى عنده التراويح، وقرأ الإمام في تلك الليلة سورة الأنعام في ركعة واحدة، وهي (165) آية، فيما رُويَ عن أبي حنيفة، رضي الله عنه، أنّه كان يستحب أنْ يُقرأ في كلّ ركعة عشر آيات؛ ليقع للمسلم أو الإمام ختم القرآن في صلاة التراويح، على مدى شهر رمضان المبارك.[5]

---

[1] انظر: ابن منظور، مصدر سابق، مادة روح.

[2] ابن مودود الموصلي، الاختيار لتعليل المختار، 1/68-69.

[3] ابن حجر العسقلاني، مصدر سابق، 4/115.

[4] هو: علي بن محمد سليم المصري المعروف ببهاء الدين بن حنّا، عاش ما بين (603هـ/ 677هـ)، كان وزيرًا، من أكابر الرجال في عصره حزمًا، وعزمًا، ورأيًا، ودهاء. ولد بمصر، ونشأ وتعلّم فيها، وتولّى الوزارة للظاهر بيبرس وابنه، توفي بمصر. انظر ترجمته في: المقريزي، المواعظ والاعتبار، 3/606-607؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، 5/358؛ الزركلي، الأعلام، 4/333.

[5] انظر: ابن مودود الموصلي، مصدر سابق، 1/69.

وتضايق الشاعر أبو الحسين الجزّار (ت675ه) من طول قراءة الإمام، وقد شكا ما فعله الإمام في بيتين من الشعر، فقال[1]:

مَالي علَى الأنعامِ مِنْ قُدْرَةٍ لا سيَّما في رَكْعَةٍ واحِدَة
فلا تُسَمُّوني حُضُورًا سِوَى في لَيْلَة الأنفَالِ والمائِدَة

فالشاعر الجزّار لا يقدر على صلاة ركعة، يقرأُ فيها الإمام سورة الأنعام، وهو يبلغ المصلين أنّه لن يحضر صلاتهم، لكنْ -وفي تورية جميلة منه- طلب منهم أن يحسبوه من الحضور إذا ما وجدت الغنائم، وموائد الطعام، فهو لا يستغني عن نصيبه منها.

ب. السّمر في رمضان بعد صلاة التّراويح إلى السّحور

كان بعض المسلمين يمضون ليلهم بعد صلاة التّراويح، وهم يتسامرون في مواضيع شتى، حتى وقت السحور، ويبدو أنّ بعضهم كان يجتمع في المساجد للتّباحث في مواضيع علمية مختلفة، فقد روى ابن ظافر الأزديّ (ت 613ه) أنّه اجتمع وبعض أصدقائه في ليلة من ليالي رمضان بالجامع بعد الصّلاة للحديث، وأشعل فانوس السّحور، وقد جرت بينهم مطارحة شعريّة جميلة في وصف فانوس السّحور، وممّن قال فيه أبو الحجاج يوسف بن علي المنبوز بالنعجة قال[2]:

هذا لِواءُ سُحورٍ يُستَضَاءُ بِهِ وعَسْكَرُ الشُّهْبِ في الظَّلماءِ جرّارُ
والصَّائمونَ جميعاً يهتدونَ بهِ كأنَّهُ عَلَمٌ في رأْسِهِ نارُ

ووصف الرشيد أبو عبد الله محمد بن متانو، الفانوس فقال[3]:

أَحْبِبْ بفَانوسٍ غَدَا صَاعِداً وضَوؤُهُ دانٍ مِنَ العَيْنِ
يَقْضي بصومٍ وبفطرٍ مَعاً فقَدْ حَوى وَصْفَ الهِلالَيْنِ

وهنا يتضح أنّ الفانوس كان يضاء وقت الإفطار، عند أذان المغرب؛ ليعلَمَ النّاس الذين لا يسمعون الأذان موعد الإفطار، فَيُفطرون، ووقت السحور، فيتسحّرون.

ويظهر أنّ فانوس السّحور كان يرفع على مئذنة الجامع ليستطيع النّاس رؤيته، وقد عبر عن ذلك الشاعر أبو الحسن بن النبيه المصري (ت619ه)، قال[4]:

حَبّذا في الصِّيامِ مِئْذَنَةُ الجا مِع واللّيْلُ مُسْبِلٌ أذيالَهْ

[1] ابن تعزي بردي، النجوم الزاهرة، 7/679.
[2] ابن ظافر الأزدي، بدائع البدائه، ص272.
[3] المصدر نفسه، ص272.
[4] المصدر نفسه، ص274.

خِلْتُها والفانوسَ إذْ رفعْتُهُ صَائداً واقِفَاً لصيدِ الغزالَهْ

ولما سمع أبو العز مظفر الأعمى المقاطيع الشعرية، التي قالها مَنْ كان يحضر مجلس علي بن ظافر الأزديّ، أخذ معانيها، وقال[1]:

أَرَى علَماً للنّاسِ في الصَّومِ يُنْصَبُ علَى جامعِ ابْنِ العَاصِ أَعلاهُ كَوْكَبُ
ومَا هُوَ في الظَّلْماءِ إلاّ كأنّه علَى رُمْحِ زِنْجيٍّ سِنَانٌ مذَهَّبُ
ومِنْ عَجَبٍ أنّ الثُّريا سَماؤُها مَعَ اللّيْلِ تُلْهي كُلَّ مَنْ يترَقَّبُ
فطَوْراً تُحَيِّيْهِ بباقةِ نَرْجِسٍ وطَوْرًا يُحيّيها بكَأسٍ تَلَهَّبُ

هنا يشبّه الشاعر الفانوس عندما يُرفع على مئذنة جامع عمرو بن العاص بالعلم الذي ثبت في أعلاه كوكب مضيء، لا بل يبدو في الظلام كالسَّنان المذهب اللاّمع على رأس رمح أسود، ثم يشبّهه بالثّريا في السّماء فيتسلى بها مَنْ يترقّبها، وينظر إليه، فمرّة ينظر إلى نجومها التي تحيي الفانوس، وأُخرى ينظر إلى كأس الفانوس الملتهب، وهو يحيي الثُّريا. ويتضح أنّ الشاعر رسم صورة جميلة للفانوس، وصورة أجمل للفانوس والثريا وهما يحيِّي أحدهما الآخر.

ج. السّحور

السّحر: آخر الليل، قبيل الصبح، وقيل هو: من ثلث الليل الآخر إلى طلوع الفجر. ومنه أخذت كلمة السحور وهو: طعام السّحر وشرابه. وقيل هو: ما يُتسحَّر به وقت السّحر، من: طعام، أو لبن، أو سويق. والسويق: ما يُتّخذ من الحنطة والشعير[2]. والسّحور من مستحبات الصيام، ولا إثم على مَنْ تركه، وهو يقوّي المسلم على طاعة الله، سبحانه وتعالى، قال تعالى:﴿وكُلُوا واشْرَبُوا حتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الخَيْطُ الأبْيضُ مِنَ الخَيطِ الأَسْودِ مِنَ الفَجْرِ﴾[3]. وهو غذاء مبارك يُهوَّن على المسلم الصَّيام، ويكون في الثلث الأخير من الليل، وهو من أكثر الأوقات بركة، وقد حثّ الرّسول، صلّى الله عليه وسلم، على فعله، ومَنْ لم يتيسر له السّحور عليه أن يشرب جرعة ماء[4]. قال رسول الله، صلّى الله عليه وسلم: "تَسَحَّروا فإنَّ في السُّحورِ بَرَكَةٌ"[5].

وأول المسحّرين كان الصحابي بلال بن رباح، رضي الله عنه، فيما كان مَنْ يُعلم بانتهاء وقت السّحور، وبدء طلوع الفجر الصحابي ابن أمّ مكتوم الأعمى، وهما مؤذنا رسول الله، صلّى الله عليه

[1] المصدر نفسه، ص275.

[2] انظر: ابن منظور، مصدر سابق، مادة سحر، وسوق.

[3] البقرة، 2/187.

[4] انظر: الصابوني، مرجع سابق، 2/152.

[5] ابن حجر العسقلاني، مصدر سابق، 4/139؛ مسلم، مصدر سابق، 2/770.

وسلم، وذلك بقول ابن عمر، رضي الله عنهما، قال: كان لرسول الله، صلّى الله عليه وسلم، مؤذنان: بلال وابن أمِّ مكتوم، فقال رسول الله، صلّى الله عليه وسلم: "إنَّ بلالاً يُؤَذِّنُ بلَيْلٍ، فقالَ رَسولُ الله، صلَّى اللهِ عليه وسلم: فكُلُوا واشْرَبُوا حتّى يُؤَذِّنَ ابْنُ أُمَّ مكْتومٍ، فإنَّهُ لا يُؤَذِّنُ حتَّى يطلعَ الفجْرَ". قال القاسِمُ: ولَمْ يكُنْ بيْنَ آذانِهِمَا إلاّ أَنْ يَرْقَى ذَا، ويَنْزِلَ ذَاً.[1]

وقد تطوَّرت عملية التّسحير من عهد رسول الله، صلّى الله عليه وسلم، عبر العصور المتعاقبة إلى القرن السادس الهجري، حيث ابتدع بعض المسحَّرين شعرًا خاصًا، كانوا ينشدونه وهم يسحِّرون النّاس، ويوقظونهم؛ لتناول طعام السحور، وشرابه.

5- الأوزان الشعريّة التي اخترعها المسحِّرون

اخترع المسحَّرون أوزانًا شعرية عدّة، كانوا ينظمون عليها أبياتا خفيفة، لينشدوها وقت السحور، ومن أهم تلك الأوزان:

أ- القوما

نظم اخترعه أهل بغداد، برسم السّحور في شهر رمضان، وهو ملحون دائماً[2]، ويقال إن اسمه مشتق من "قول المغنين للتّسحير في آخر كل بيت منه، بعد غناء الرمل أو الزجل: "قُوما للسّحُور". يُنبّهونَ به ربَّ المنزِلِ، ويذكرون فيه مدحه، والدّعاء له، وتقاضيه بالإنعام"[3]. وبذلك صار هذا الاسم "قوما" علما له.

وللقوما وزنان: الأول، بيته مركّب من أربعة أقفال، ثلاثة متساوية في الوزن والقافية، والرابع وهو الثالث أطول منها، وهو مهمل بغير قافية. والثاني، بيته مركّب من ثلاثة أقفال مختلفة الوزن، متّفقة القافية، ويكون القفل الأول منه أقصر من الثاني، والثاني أقصر من الثالث. وعبارة "قوما للسحور"، كانوا يقولونها بعد غناء الرمل أو الزجل.[4]

ويقال إنّ أول من اخترعه -على الأرجح – هو أبو منصور بن نقطة (ت597هـ)، وذلك برسم الخليفة العباسي النّاصر لدين الله أحمد بن المستضيء بالله (ت622هـ)، الذي جعل لابن نقطة عليه ما يفضلُ عنه في كلّ سنة من الإنعام؛ وذلك لأنَّ هذا الوزن كان يُعجبه، ويُطربه[5].

---

[1] البخاري، فتح الباري، 4/136.

[2] انظر: صفي الدين الحلي، العاطل الحالي، ص3؛ سلام، محمد زغلول، الأدب في العصر المملوكي، 2/302.

[3] صفي الدين الحلي، مصدر سابق، ص127.

[4] انظر: صفي الدين الحلّي، مصدر سابق، ص127؛ الأبشيهي، المستطرف في كل فن مستظرف، 2/288.

[5] انظر: صفي الدين الحلّي، مصدر سابق، ص127، وأكد صفي الدين الحلي أنه مُخترع قبل ابن أبي نقطة فقال: "والصحيح أنه مخترع من قبله"؛ سلام، محمد زغلول، الأدب في العصر الأيوبي، ص283؛ الأدب في العصر المملوكي، 2/302.

ويقال إنّه لمّا توفي أبو منصـور بن نقطة، كان له ولد صـغير ماهر في نظم القوما، والغناء به، وأراد أن يُخبر الخليفة النّاصر لدين الله العباسيّ بموت أبيه، ليجريه على مفروضه، فلم يستطع، فصبرَ إلى أول رمضان، وأخذ أتباع والده من المسحِّرين، ووقفَ في أول ليلة من شهر رمضان تحت الطيارة (العليّة)، وغنّى القوما، فأصغى الخليفة إليه، وكان مِمّا قاله[1]:

يـا سـيّـدَ السَّـاداتِ لَـكَ بـالـكـرمْ عـاداتْ
أَنَـا بُـني ابـنِ نُـقْـطَـهْ تِـعـيْـش أبـي قَـدْ مـاتْ

فأُعجب به الخليفة، واستحضَره، وخلع عليه، وفرض له ضِعْفي ما كان لأبيه.

ب- الكان وكان

وهو نظم ملحون دائمًا، اخترعه أهل بغداد. وسـمي الكان وكان؛ لأنّهم كانوا ينظمون به الحكايات والخرافات، إلى أَنْ ظهر الإمام عبد الرحمن بن الجوزي، وشـمس الدّين الكوفيّ في القرن السادس الهجري، حيث نظما فيه المواعـظ والحكم[2]. واشتـهر به أيضا أبو منصور بن نقطة (ت 597هـ) المسـحّر، حيث كان ينظم فيه أَنغامًا يسـحّر بها النّاس في رمضـان. والكان وكان له وزن واحد، وقافية واحدة، ولكنّ الشطر الأول من البيت أطول من الشطر الثاني[3].

ج- المواليا

وهو نظم يحتمل اللحن والإعراب، واللحن فيه أحسـن[4]، و"يغلب على لغة المَوال اللفظ العامي، غير المعرب لكن يحلو لبعض المَوَّالين استخدام بعض ألفاظ معربة في حشـو مواويلهم تملُّحا، وربما غلب اللفظ المعرب عند بعضـهم".[5] ويرجَّح أنَّ مخترعيه هم أهل واسـط؛ فكانوا يتغنّون به في بسـاتين النخل، وعند سـقي الأرض. وكانوا يقولون في آخر كلّ بيت منه (ياموالِيا)، إشـارة إلى أسيادهم. وقيل إنّ سبب ظهوره يعود إلى نكبة البرامكة على يد الخليفة العباسيّ هارون الرشيد، رضي الله عنه، حيث أمر الشـعراء بعدم رثائهم، فرثتهم جارية لهم، وجعلت في نهاية كلّ بيت عبارة (يا مواليا)؛ لكي تخفي أمر رثائها.[6]

---

[1] صفي الدين الحلّي، مصدر سابق، 128-127؛ الأبشيهي، مصدر سابق، 2/288.

[2] انظر: سلام، محمد زغلول، الأدب في العصر المملوكي، 2/302، 280؛ الهاشمي، ميزان الذهب، ص132.

[3] انظر: الأبشيهي، مصدر سابق، 2/286.

[4] انظر: صفي الدين الحلي، مصدر سابق، ص3.

[5] سلام، محمد زغلول، الأدب في العصر المملوكي، 2/325.

[6] انظر: ضيف، شوقي، فصول في الشعر، ص46،71؛ سلام، محمد زغلول، الأدب في العصر الأيوبي، ص282؛ الهاشمي، مرجع سابق، ص133.

وكان هذا النّظم على ثلاثة أنواع، ولا يلتزم فيه مراعاة قوانين العربية، وهو بيتان تتحد شطورهما الأربعة بقافية واحدة، ووزنه غالبًا على البحر البسيط. وكان ما ينظم فيه يجري على ألسنة عامة الناس، وبخاصة في شهر رمضان المبارك.[1]

6- بعض حلويات رمضان

اعتاد المسلمون في شهر رمضان صناعة عدد من أنواع الحلويات، بعضها خصُّوا به رمضان من دون غيره من شهور السنة، وبعضها شاع في رمضان، كما في غيره من شهور السنة. وقد - تمكّنت خلال مطالعتي في شعر شعراء القرنين السادس والسابع الهجريين- من معرفة نوعين من أنواع الحلويات، التي كانت تُؤكل في شهر رمضان، ووصفهما الشعراء، وهما:

أ- القطائف

وهي طعام يعمل من الدقيق المُرَقَّ بالماء[2]. وهي اليوم نوع من الحلويات تصنع من الدقيق والسّميد على شكل دائري، منها: الكبير، والمتوسط، والصغير. وتحشى بالجبن أو الجوز، وجوز الهند، أو الفستق الحلبي، واللوز وجوز الهند، أو غير ذلك، حسب مذاق الناس، وتقلى بالزّيت، أو تُشوى بالفرن، ثم تغمس بالقطر.

وقد وصفها عدد من الشعراء، ومنهم عبد الرحمن بن هبة الله بن حسن بن رفاعة (ت 593هـ)، فقال في القطائف المقليّة[3]:

أَهْلاً بشَهْرٍ غَدا فيهِ لَنَا خلَفٌ ... أَكْلُ القَطائفِ عَنْ شُرْبِ ابْنَةِ العِنَبِ
مِنْ كُلِّ ملْفوفَةٍ بيْضٍ إلى أُخَرٍ ... حُمْرٍ مِنَ القَلْيِ تَشْفي جنّةَ السَّغَبِ
كأنّهُنَّ حُروزٌ ذاتُ أغْشِيَةٍ ... مِنْ فضّةٍ وتعاويذٌ مِنَ الذّهبِ

فالشاعر يُرحّب بشهر رمضان، الذي يأكلون فيه القطائف بدلاً من شرب الخمر، وهي نوعان: بيضاء تشبه الفضة في لونها، وحمراء تشبه الذهب.

وقال من قصيدة أخرى[4]:

وافى الصَّيامُ فَوافَتْنَا قَطائِفُهُ ... كمَا تسنَّمَتِ الكُثْبانُ مِنْ كَثَبِ

هنا يجعلها ابن رفاعة من مأكولات شهر رمضان، ويشبّه ظهورها وشيوعها في رمضان بالكثبان الرملية التي تظهر مرتفعة عن مستوى سطح الأرض.

[1] انظر: سلام، محمد زغلول، الأدب في العصر الأيوبي، ص282؛ الهاشمي، مرجع سابق، ص133.

[2] انظر: ابن منظور، مصدر سابق، مادة قطف.

[3] العماد الأصفهاني، مصدر سابق، 1/62-63.

[4] العماد الأصفهاني، مصدر سابق، 1/63.

ووصفها علي بن عمر بن قزل (ت 656هـ)، وبيّن طريقةَ صنعها، وتقديمها، ومذاقها، وأوان أكلها، وفائدتها معترفاً – على إطالته نسبيًا- بأنّه مقصر في وصفها، فقال يصف القطائف المدورة[1]:

بِسْـــمِ الإلـهِ الـرَّاحـمِ الـغَـفُـورِ ... الـرَّازق المُـهَـيـمِـنِ الـقَـديـرِ
حَـوَّلَـنـا مِـنْ فَضْـلِـهِ الـغَـزيـرِ ... قـطـائـفًـا في هَـيْـئَـةِ الـبُـدورِ
ومِـثْـلُ جـامـاتٍ[2] مِـنَ الـبـلَّـورِ ... والـبـيْـضُ مِنْ مـنـاشِـفِ الحَريـرِ
دقـيـقُـهـا الجـلـيْـلُ بـالـتّـخـمـيـرِ ... وحِـلُّـهـا المَـعْـقُـودُ بـالـنُّـحـورِ
أشَـــهى مِـنَ الـعَـنْـبَـرِ والـعَـبـيـرِ ... قَـدْ سُـــقِـيَـتْ بـمـاءِ وردٍ جُـوري
وجُـلِّـيَـتْ بـالسُّـــكَّـرِ المَـذْرُورِ ... وكُـلِّـلَـتْ بـالـفُسْـتُـقِ المـقْشُـــورِ
كـأنَّـهـا لـغـايـةِ الـتَّـحْـريـرِ ... في الـلّـونِ والمَـذاقِ والـتَّـدويـرِ
أقـراصُ شَـــهْـدٍ قُـطـفـتْ مِـنْ نـورٍ ... عُـيـونـهـا المِلاحِ في الـتَّـصـويـرِ
مـحَـمـودةٍ في ســـائـرِ الأُمـورِ ... عـنْـدَ الـطَّـبـيـبِ الـحـاذِقِ الخَـبـيرِ
تَصْـــلُـحُ لِـلْـمَـبْـرورِ والمَـحْـرورِ ... نـأْكُـلُـهـا في أَفْـضَـــلِ الشُّـــهـورِ
بَـعـدَ الـفُـطـور ثُـمَّ في السّـــحُـور ... فـنَـغْـتَـدِي بـذَاكَ في حُـبـورِ
إنّـي وإنْ أطـلـتُ ذُو تَـقْـصِـيـرِ ... عَنْ وَصْـفِـهـا المُسْـتَـعْـذبِ المَوْفُورِ

ب- الكنافة

وهي طعام يعمل من الدقيق الأبيض المعروف بعجينة الكنافة، والصبغة، والجبن الحلو، ثم يشوى بالفرن، ثم يغرّق بالقطر.

وقد وصفها يحيى بن عبد العظيم الجزّار (ت 675هـ)، وطلب من أحد الأمراء أن يهديها له، قال[3]:

مَـا رأَتْ عَـيْـنَـيَّ الـكِـنـافَـةَ إلاّ ... عِـنْـدَ بـيّـاعِـهـا عـلَـى الـدُّكـانِ
ولَعَمْرِي مـا عـايَـنَـتْ مُـقْـلتَي قَـطْ ... طُ سِـــوَى دَمْـعِـهـا مِـنَ الحِـرمـانِ
ولكَمْ لَيْـلَـةٍ شَـــبِـعْـتُ مِنَ الجُـو ... ـعِ عِشـــاءً إنْ جُـزْتُ بـالحَـلْـوانـي
حَسَـــراتٍ يَسُـــوقُـهـا الطَّرْفُ لِلْقَلْ ... ـــــبِ فوَيْـلٌ لِلْفكْرِ عِـنـدَ العَيَـانِ
كَمْ سُـــدورٍ مُصَـــقّـفـاتٍ وكَمْ مِنْ ... شَـــبَـكٍ دُونَـهـا، وكَمْ مِنْ صَـــوانـي

[1] ابن قزل، مصدر سابق، ص175-174.

[2] الجامات: مفردها الجام: كأس أو قارورة، من الفارسيّة. انظر: المحبي، قصد السبيل، 1/365.

[3] سلام، محمد زغلول، الأدب في العصر المملوكي، 2/142.

إنّه يشكو للأمير من أنّه لَمْ يرَ الكنافة إلاّ في الدّكان، ويقسم أنَّ عينه لم تر قطرًا سوى قطرها، الذي تسكبه من الحرمان، وأنّه أمضى ليالِيَ كثيرة شبعانًا من الجوع، وكان عندما يمرّ -وقت العشاء- بالحلواني يتحسَّر قلبه على ما تراه عينه، ويفكر به ذهنه، وكثيرًا ما يرى الكنافة مصفّفة في الصّواني والسدور.

وعبَّر الجزّار عن ولعه بحلويات رمضان؛ الكنافة والقطائف على حدٍّ سواء، فقال[1]:

تَـاللهِ مَـا لَـثْمُ المـرَاشِـفْ كَـلاّ ولا ضَـمِّ المَـعـاطـفْ
بـألـذَّ وَقْـعًـا في حشَـا يَ مِنَ الكنـافَـةِ والقَطَـائفْ

فالجزّار يقسم بالله العظيم، أنّ أكل الكنافة والقطائف ألذُّ عنده من لثم شفاه محبوبته، أو ضمها إليه. ولا شك في أنّ ذلك ناتج من حرمانه، وفقره، وعدم قدرته على تحقيق رغباته في المأكل والمشرب.

7- الاحتفال بقدوم عيد الفطر والتهنئة به

ينتهي شهر رمضان المبارك بعيد الفطر السّعيد، حيث يفرح المسلمون، ويسعدون بأنْ مكَّنهم الله، سبحانه وتعالى، من القيام بفريضة الصَّيام، ويحتفلون بعيد الفطر باعتباره عيدًا مخصوصًا بشهر الصَّيام، وقد وجد شعراء القرنين السادس والسابع الهجريين في عيد الفطر فرصة لتهنئة الخلفاء، والسلاطين، والأمراء، وغيرهم من أصحاب السلطة، ونيل أعطياتهم.

فهذا الشاعر أبو المظفر الأبيورديّ، محمد بن أحمد (ت 507هـ) له قصيدة مدح بها الخليفة العباسيّ المستظهر بالله، رضي الله عنه، وهنأه بعيد الفطر، قال[2]:

وَلّى الصَّـيـامُ وقَـدْ أَوْقَـرْتُـه كـرَمًـا أفَضـَى إلـيـكَ بـأَجْـرٍ غَـيـرِ مَـمْـنـونِ
وأَقْبَـلَ العيـدُ مُفْتَـرًّا مباسمُـهُ بـطـائـرٍ هـزَّ مِـنْ عِـطْـفَـيـكَ مَـيـمـونِ

فالخليفة قام بكلِّ ما يتوجب القيام به في شهر رمضان، واستحق على ذلك أجرًا غير منقطع، وحاز الاحتفال بعيد الفطر، وله في ذلك بشرى حسنة، وكأنّه اقتبس معنى الشطر الثاني في البيت الثاني من قوله تعالى:﴿وكُلَّ إِنْسانٍ أَلْزمْناهُ طائِرَهُ في عُنُقِهِ﴾[3].

[1] سلام، محمد زغلول، المصدر نفسه، 2/143.
[2] الأبيوردي، الديوان، 1/130.
[3] الإسراء، 17/13.

وهذا أحمد بن منير الطرابلسي (ت 548هـ) يمدح نور الدّين زنكي، ويهنئه بالعافية من مرض ألمَّ به، وقد صادف عيد الفطر، قال[1]:

عِشْ لِمُلْكٍ أَصْبحتَ في الدّستِ[2] منْهُ فوقَ كِسْرى عَدْلاً وشَعْبًا وكَسْرا
تُفْطِرُ الطِّيباتُ للفطرِ فطرًا وتَعُمُّ الأَعداءَ في النَّحْرِ نَحْرا

هنا ابن منير يمدح نور الدّين بالمُلك الذي حصّله، والذي يفوق مُلك أكاسِرة الفرس، وأنه يفطر على الأشياء الطيبة في عيد الفطر، وفي عيد الأضحى (النّحر) ينحر أعداءه.

ومدح ابن سناء الملك (ت 608هـ) القاضي الفاضل، وهنأه بعيد الفطر، قال من قصيدة[3]:

وهنَاكَ عِيْدٌ أَنْتَ عِيْدٌ عِنْدَهُ وَلذاكَ أَضْحى مِنكَ أَوْلَى بالهَنَا

فابن سناء المُلك يُهنّئ القاضي الفاضل بعيد الفطر، الذي يعدّ وجود الممدوح حيًّا فيه عيدًا عنده، فهو أولى بأن يُهنّأ به.

وقال علي بن سالم الحديثي (ت 626هـ) من قصيدة مدح بها الأمير شمس الدين كُجْ قندي، وهنّأه بعيد الفطر (بعد أنْ أطال في تعداد صفاته الدينية والدنيوية)، قال[4]:

فاسعَدْ بعيدِ الفِطْرِ وابْقَ مؤيّدًا بشُيوعِ نَصْرٍ سارَ ذكْرُ مُبينِهِ
ما حرّكَ الدّوحَ النَّسيمُ ومَا دعَا وُرْقُ الحمَامِ علَى فُروعِ غُصُونِهِ

هنا يدعو الشاعر لممدوحه بالسعادة في عيد الفطر. وأن يبقى منصورا ما حرّك النسيم الشجرَ، وما غنّى الحمام على غصونه (أي دائما).

وكان المسلمون - كما اليوم- يرقبون هلال عيد الفطر، الذي يُعلِنُ نهاية شهر الصَّوم، ويستبشرون به، فيفرحون ويسعدون، وقد عبّر عن ذلك الشاعر يحيى بن سلامة الحصكفي (ت 553هـ)، قال في وصف رؤية هلال عيد الفطر[5]:

تباشَروا بِهِلالِ الفِطْرِ حَيْثُ بَدا ومَا أَقامَ سِوى أَنْ لاحَ ثُمَّ غَدا
كالحِبِّ واعدَ وصْلاً وهو مُحْتَجِبٌ فحِيْنَ بانَ تقاضُوه فقال: غَدا

[1] ابن منير الطرابلسي، مصدر سابق، ص101.

[2] الدّست: مجلس الملوك، أو مجلس الوزارة والرئاسة، من الفارسيّة. انظر: المحبي، مصدر سابق، 2/26-27.

[3] العماد الأصفهاني، مصدر سابق، 1/71.

[4] ابن الشعار، مصدر سابق، م3ج4/254.

[5] العماد الأصفهاني، مصدر سابق، 2/417.

فالناس يستبشرون خيرًا برؤية هلال شوال (عيد الفطر) عندما يظهر لهم، لكنّه لا يلبث أن يغيب، ويُشبَّه ذلك بالمحبوب الذي يواعد محبه، ثم لا يلبث -بعد أن يراه- أن يمهله إلى اليوم التالي.

8- الضيق برمضان واستعجال نهايته

مثلما كان أغلبية المسلمين يترقّبون رمضان في شعبان، ويسعدون برؤية هلاله، وكان الشعراء يستغلّون فرصة قدوم شهر رمضان، ويهنئون فيه الخلفاء، والسلاطين، والأمراء وغيرهم، كان بعض المسلمين يضجرون بطول رمضان، ويترقّبون نهايته، كما كان بعض الشعراء يصرَّحون بضيقهم، وضجرهم برمضان، بل ووصل الأمر ببعضهم إلى حدّ هجاء رمضان.

وقد ذكر صلاح الدّين الصفديّ أنّ العرب كانت تقول: وقع رمضان في الواوات، أي أنه دخل العشرين، فلا يذكر إلا بواو عطف، وكانت تقول: وقع الشهر في الأنين. أي أنه يقال فيه: أحد وعشرون، وثاني وعشرون، فيكرّر فيه الأنين، وحتى شاع بين عوام الناس المثل: "إذا وقع رمضان في الأنين خرج شوال من الكمين"[1].

وقال قمر الدولة جعفر بن دوّاس المصري في سنة (554هـ)، في مجلس الوزير مؤتمن الدولة بن صدقة حيث هنّأه النّاس بشهر رمضان[2] قال:

لا أُهنِّيكَ بالصِّيام لأنّي ... واثِقٌ بالهَنَاءِ يومَ العيدِ
بَلْ أُهنّي بالأَكْلِ والشُّربِ والزّفـ ... ـنِ[3] وصوتِ الغنا وجسّ العودِ
لا بصومٍ يُجفِّفُ الكِبْدَ حتّى ... يجعلَ العودَ وهو مِثْلُ العودِ

إنّه لا يهنئ ممدوحه كما يهنّيه غيره بمقدم شهر الصّوم، بل ينتظر حتّى مقدم العيد، حيث الأكل، والشرب، والغناء. ولا يهنئ بالصّوم، الذي يجفّف كبد الإنسان، ويجعل جسمه في نحوله كالعود.

وقال تاج الملوك بوري بن أيوب (ت 579هـ) يذكر صوم رمضان على سبيل المداعبة[4]:

رمضانُ بل مَرَضانِ إلاّ أنّهمْ ... غَلِطوا إذاً في قولهمْ وأساءوا
مَرَضانِ فيه تخالفا فنهارُهُ ... سُلٌّ ولكنْ ليله استسقاءُ

[1] انظر: الصفدي، الغيث المسجم، 1/74.

[2] العماد الأصفهاني، مصدر سابق، 2/220.

[3] الزّفن: الرّقص. انظر: ابن منظور، مصدر سابق، مادة زفن.

[4] عبد الهادي، حسن، دراسة شعر تاج الملوك، ص121؛ ابن واصل، مصدر سابق، 2/144.

إنّه يجعل رمضان بمثابة المرضين السيئين؛ مرض السّل والاستسقاء.

وعبر تاج الملوك عن عدم سروره بمقدم شهر رمضان عندما جاءته جماعة لا يأنسها في رمضان، قال[1]:

مَنْ كانَ بالصَّوْمِ إذْ يأْتيهِ مُغتَبِطاً إنّي به حِينَ يأتي غيرُ مُغتَبِطِ
لَوْ لَمْ يكُنْ فيهِ إلاّ قَطْعُ لذَّتِنا مِمّنْ نُحِبُّ وجَمْعُ الشَّملِ بالبلَطِ[2]

هنا يصرّح الشاعر تاج الملوك بوري(ت 579ه) بأنّه لا يسرُّ بمقدم رمضان، فهو قاطع اللّذات، ومفرّق شمل الأحبة، ومبعد ما بينهم.

واعتبر الشاعر علي بن المؤيد بن حواري (ت 559هـ) في شعر كتبه إلى الفقيه أبي العلاء بن أبي الندى سنة (553هـ)، أنّ رمضان يكدّر المهرجان الذي أقامه الفقيه؛ لأنّه يمنع الشرب، ولقاء الأحبة، قال[3]:

للهِ يَوْمُ المِهرجان وَطيبِهِ لَوْ لَمْ يُكَدِّرْهُ الصِّيامُ المُقْبِلُ
مَا كانَ أَحْلاهُ لِشُرْبِ مُدَامَةٍ وَوِصالِ مَعْشوقٍ يَجُودُ ويَبْذُلُ

ثانيًا- الدّراسة الفنيّة

شملت الدراسة الفنيّة للشعر الذي قيل في رمضان قضيتين هما: الأسلوب واللّغة، والصّورة الفنيّة، وقد تناولتهما على النحو الآتي:

1- الأسلوب واللّغة

كان شعراء القرنين السادس والسابع الهجريين الذين اهتموا بذكر رمضان في أشعارهم، واضحي التأثّر برمضان ومتعلّقاته، فجعلوا ذكره في مقاطع منفصلة من القصائد المدحيّة التي أنشدوها، أو جعلوا المقطوعات التي ذكروه فيها كتلة واحدة بحيث تركّز على معنًى واحد، كما فعل أبو الحسين الجزّار في وصف كنافة رمضان، وفي التعبير عن ولعه بحلويات رمضان[4]، وكما فعل تاج الملوك بوري عندما عبّر عن ضيقه برمضان[5].

[1] عبد الهادي، حسن، مرجع سابق، ص180.

[2] البلط: أبلط الرّجل: قلّ ماله، البُلُط: المُجّانُ والمتحزَّمونَ من الصوفية. البُلُطُ: الفارّون من العسكر، بلّط الرجل: أعيا في المشي. المبلاطة: المجاهدة. انظر: ابن منظور، مصدر سابق، مادة بلط.

[3] العماد الأصفهاني، مصدر سابق، 2/90.

[4] سلام، محمد زغلول، الأدب في العصر المملوكي، 2/142.

[5] المصدر نفسه، 2/143.

وقد استثمر الشعراء الذين أثرّ فيهم شهر رمضان المبارك، عددًا من الوسائل الأسلوبية في أشعارهم لكي يكفلوا لها سرعة التأثير في متلقي أشعارهم، وسيرورتها، وأبرز تلك الوسائل هي:

1- **أثرت الغالبية العظمى من الشعراء استخدام الألفاظ السهلة، والتراكيب الواضحة والمألوفة**، التي تؤدي المعاني بيسر وسهولة، وتحقّق التأثير المنشود في أَقْصر طريق، وأَقربه. كما في الأبيات التي قالها ابن الساعاتي، وبيّن فيها ضجره بشهر آب، الذي جاء فيه شهر رمضان[1]. وكما في قول أبي الحسين الجزّار[2]:

مَالي على الأنعامِ مِنْ قُدرَةٍ ... لا سيَّما في ركعة واحدة
فلا تُسمُّوني حُضورًا سِوَى ... في ليلةِ الأنفال والمائدة

فهذان البيتان يكادان يكونان كلامًا عاديًا، يمكن أن يقوله عامة الناس، وهو ممّا يسمى بالسهل الممتنع. ومثله قول أسامة بن منقذ في مدح نور الدّين[3]:

سُلطانُنا زاهدٌ والنّاسُ قد زَهِدُوا ... لَهُ فكلٌّ على الخيراتِ مُنْكَمِشُ
أيامُه مثلُ شهرِ الصّوم خاليةً ... عن المعاصي وفيها الجوعُ والعطشُ

فالبيتان مكوّنان من عبارات ما زال بعضها دارجًا على ألسنة أهل الشام ومصر حتى وقتنا الحاضر. ومثله ما قاله ابن الساعاتي في بيان ضجره وضيقه بشهر آب؛ لأنّ رمضان جاء فيه، فقد عبّر عن ضجره بآب بعبارات سهلة واضحة، لا لبس فيها من مثل: (قبح الله آب)، و (كل يوم له عذاب أليم)، و (وجب الصومُ فيه شرعًا، وصمنا في جحيم رجاء قرب النعيم)[4]. وأسهل من ذلك كلّه القصيدة التي نظمها ابن قزل المشدّ في وصف قطائف شهر رمضان، فقد اختار كلمات سهلة واضحة، وآلف بينها في تراكيب أوضح، زاد من حسن سبكها، ورونقها صياغتها في تشبيهات مفردة واضحة، وتكرار الحروف في أبياتها، وبخاصة حرف الراء، حيث جاءت أبياتها كلها مصرّعة[5].

2- **نزل بعض الشعراء بصياغاتهم الشعريّة إلى المستوى التداولي الاجتماعيّ اليوميّ**، ما أكسبها المعايشة اليوميّة بين عامة النّاس، فأَخذ عدد من هؤلاء الشعراء بعض الألفاظ، أو التراكيب النثرية التي غالبًا ما تلتزم الأصل في الترتيب النحوي، والتي من المرجّح أنها كانت متداولة، وشائعة في

[1] انظر: ابن واصل، مصدر سابق، 2/144؛ عبد الهادي، حسن، مرجع سابق، ص121، 180.
[2] انظر: ابن الساعاتي، الديوان، 2/399.
[3] أبو شامة المقدسي، الروضتين، 1/229؛ ابن أبي عذيبة، مصدر سابق، ص90.
[4] ابن الساعاتي، مصدر سابق، 2/399.
[5] ابن قزل، مصدر سابق، ص175-174.

المجتمعات الإسلاميّة، واستخدموها في أشعارهم التي نظموها متأثرين بشهر رمضان المبارك، ومن ذلك: (الله يسعده)، و (شهر تلاوة وصيام)، و (خير الشهور)، و (أنت يا خير الورى)، و (فداكَ من صام ومن أفطرا)، و (جهاد ليل في نهار)، و (سلطاننا زاهد)، و (فيها الجوع والعطش)، و (شهر الصيام)، و (ماحي الخطايا مضاعف الأجر)، و (صام عن كل الفواحش عمره)، و (إلى منتهى العمر)، و(طمنني)، و (هذا الأمر ليس يدوم)، وغيرها كثير.[1]

3- **عمد بعض الشعراء إلى وسائل تعبيريّة تقيم صلة وجدانيّة، ولسانيّة بين شعرهم ومُتَلَقّيه،** وذلك استجابة لمتطلبات التلقّي الجماعيّ، ومن تلك الوسائل: استخدام الأسلوب القصصيّ القائم على الحوار كما فعل ابن سناء الملك في حديثه عن تصوير توبة حكيم مع مقدم شهر رمضان، فقال[2]:

سَمعتُ حديثًا ليتَني ما سَمعتُهُ فَعِنْدي منهُ مَقْعَدٌ ومقيمُ

فعبارة (سمعت حديثاً) توحي برواية حدث، وتجعل السامعين ينصتون لمعرفة تفاصيل الرواية، ثم يسرد القصة سردًا مشوَّقًا، زاد من تشويقه الحوار القائم على (قال وقلنا).

كما أكثر بعض الشعراء من استخدام الأساليب الإنشائية التي من طبيعتها استحضار الآخر، وبناء جوّ حواريّ تفاعلي بين الشاعر والمتلقّي، فقد أكثروا من استخدام أُسلوب الخطاب الذي فيه يتم تشخيص الممدوح أو المهنّأ، من مثل: (فتهنَّ يا ملك البريّة)، و (وافى إليكَ مبشّراً)، و (خير الشهور، وأنتَ يا خيرَ الورى)، و (فداك)، و (من سعى سعيك)، و (فَفُزْ إذ كنت)، و (تهنَّ بهذا الصوم يا خير صائم)، و (كُنْ واحدًا)، و (شَنِّفْهُ بالدين الذي أنتَ)، و (شرِّفه بالذّكر الذي منك)، و (أَوْدِعْهُ ما أَودَعْتَهُ)، و (هناك عيد أنت عيدٌ)، و (فاسعد بعيد الفطر وابق). وغيرها كثير[3].

كما نشر عدد من الشعراء الذين ذكروا رمضان في أشعارهم صورًا مختلفة من الإنشاء، ما أكسبها تلوينًا أسلوبيًا، وأضفى عليها قدرًا من الحيوية التي تجعل القارئ يستحضر الموقف أمامه، ومن ذلك: استخدام العماد الأصفهاني أسلوب الاستفهام في مدح صلاح الدّين، وتهنئته بفتح قلعة بعلبك مع بداية رمضان المبارك، قال[4]:

---

[1] ابن الشعّار، مصدر سابق، م6ج7/236، م3ج4/167؛ ابن قزل، مصدر سابق، ص10،42؛ أبو شامة المقدسي، مصدر سابق، 1/229؛ العماد الأصفهاني، مصدر سابق، 1/76؛ ابن سعيد المغربي، مصدر سابق، ص288 على التوالي.

[2] ابن سعيد المغربي، النجوم الزاهرة، ص288.

[3] ابن قزل، مصدر سابق، ص10؛ ابن منير الطرابلسي، مصدر سابق، ص96-95.

[4] ابن واصل، مصدر سابق، 2/30.

مَنْ ذا يَرى في الصّــومِ عيدَ ســعادةٍ حلّت لنـا، والـفـطـرُ فـيـه حَـرامُ

وزاد من جمال الأسلوب الاستفهامي أنه جاء على شكل تلغيز خفيف.

واستخدام عبد الرحمن بن رفاعه أسلوب الترحيب، في ذكره القطائف المقلية، قال[1]:

أهلاً بشــهرٍ غـدا فـيـه لـنـا خَـلَـفٌ أكلُ القطائف عن شُــرْبِ ابنة العِنَبِ

فكلمة (أهلاً) تثير في النّفس مشــاعر الفرح، والانبســاط بالقادم، وتظهر الاســتعداد الذي كان الناس يقومون به لاستقبال شهر رمضان، كما هو الحال هذه الأيام.

واستخدام الجزّار أسلوب كم الخبريّة، التي تفيد التكثير؛ للتعبير عن شدّة حرمانه لحلويات شهر رمضان، وبخاصة الكنافة، التي كان يراها عند الباعة في الدّكاكين، قال[2]:

كَمْ ســـدورٍ مُصَـــفّـفـاتٍ، وكَمْ مِنْ شَـــبـكٍ دُونهـا، وكـم مِـنْ صَـــوانـي

فهو ينظر إليها فيراها كثيرة؛ لأنَّ عينيه تُزَغْلِلاَنِ، أو كأنَّه يأكل بهما فيرى القليل كثيراً. وهذا يورثه الحسرة.

ثم يستخدم أسلوب القسم؛ ليؤكد مدى حرمانه هذه الحلويات اللّذيذة، قال[3]:

تـاللهِ مـا لـثـمُ المـراشِـــفِ كَـلاّ ولا ضَـــمّ المـعـاطـفْ
بـألـذَّ وقْـعـاً فـي حشـــا يَ مِنَ الـكـنـافـةِ والـقـطـائـفْ

وهذا ينطبق عليه المثل الشعبي الدارج حتى يومنا (حلم الجوعان عيش).

وأكثر الشعراء من استخدام أسلوب النداء بشكل لافت في ذكرهم شهر رمضان، وتهنئة ممدوحيهم بمَقْدَمِهِ، أو بمقدم عيد الفطر، ومن ذلك: (يا ملك البرية)، و (يا خير الورى)، و (يا خير صائر)، و (يا خير صائم)، و (يا سيّد السادات). وهذا يجعل القارئ، أو السامع قريباً من الممدوح، أو المهنّأ، وكأنه يستحضره، وهو يقف أمامه فيناديه ليقترب أكثر منه[4].

[1] العماد الأصفهاني، مصدر سابق، 1/62-63.

[2] سلام، محمد زغلول، الأدب في العصر المملوكي، 2/142.

[3] المرجع نفسه، 2/143.

[4] ابن قزل، مصدر سابق، ص10، العماد الأصفهاني، مصدر سابق، 1/76؛ صفي الدين الحلي، مصدر سابق، 127-128.

وأكثر عدد من الشعراء من استخدام أسماء التفضيل في هذا الموضوع، وذلك لأنهم يقيمون نوعاً من المقارنة بين الممدوحين وغيرهم، وبين شهر رمضان، وغيره من الشهور، ومن ذلك: (أشهر)، و (الأصبر الأشكرا)، و (أهون شيء)، و (أعلا وأسنى)، و (أشهى من العنبر)[1].

ولا شك في أن استخدام الشعراء هذه الأساليب المتنوّعة يضفي حيويّة أكثر على شعرهم، ويجعله أكثر قبولاً عند المتلقين، وتداولاً بين الناس.

ويلاحظ أن الألفاظ التي استخدمها الشعراء في هذا الموضوع غلب عليها الألفاظ التي تشيع الفرح، والسرور، والبهجة في النفس، ما يدلّ على أن المسلمين كانوا يسعدون بمقدم شهر رمضان؛ للأجر الذي يحصلون عليه في نهايته من الله سبحانه وتعالى، وللعادات الاجتماعيّة الإيجابيّة التي كانت تسود المجتمع المسلم في ذلك الوقت، ومن تلك الألفاظ التي سادت في شعر شهر رمضان: (يسعده)، و (الدنيا وأهليها به قد أُسعدا)، و (تهنّ)، و (مبشرًا ومخبّرًا بسعادة)، و (عيد سعادة)، و(تهن بهذا الصوم)، و (محاسن) و (تبسم) وغيرها[2].

ومن الألفاظ التي تدل على الأجر: (حوى أجر الصيام مضاعفا)، و (شهر تلاوة وصيام)، و(ماحي الخطايا مضاعف الأجر)، و (أنزل فيه من ليلة القدر)، و (شهر له الفضل والفخار)[3]، وغيرها.

كما استخدم ابن الساعاتي عدداً من الألفاظ الخاصة جداً في هجائه شهر آب لمجيء شهر رمضان فيه، وهذه الألفاظ تعبّر تعبيراً دقيقاً، وصادقاً عمّا كان يعانيه الشاعر في صومه شهر رمضان وقت شهر آب اللاهب، ومنها: (السموم، والعذاب الأليم، وعدم وجود الظل والنسيم، والأسى، والكظيم، والجحيم، وانعدام الكرم)[4].

2- الصورة الفنيّة

استخدم الشعراء الذين قالوا شعرًا في شهر رمضان المبارك الصور البيانية في نقل معانيهم، والتعبير عن مشاعرهم وأفكارهم. وقد استقى هؤلاء الشعراء صورهم الشعريّة –غالبًا- من القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهّرة، وما فيهما من معان دينيّة تخصّ شهر رمضان المبارك، وكلّ ما يتعلّق به من أعمال وعبادات يقوم بها الإنسان المسلم الصائم.

[1] ابن منير الطرابلسي، مصدر سابق، ص96-95؛ العماد الأصفهاني، مصدر سابق، 1/76، 6-5؛ ابن قزل، مصدر سابق، ص10 على التوالي.

[2] ابن الشعار، مصدر سابق، م6ح7/236، م3ج4/167؛ ابن قزل، مصدر سابق، ص10؛ ابن واصل، مصدر سابق، 2/30؛ العماد الأصفهاني، مصدر سابق، 1/76؛

[3] ابن الشعّار، مصدر سابق، م6ج7/236؛ ابن قزل، مصدر سابق، ص10،22 على التوالي.

[4] ابن الساعاتي، مصدر سابق، 2/399.

وقد جاءت معظم الصور الشعريّة المستقاة من هذا المصدر بسيطة وسهلة، وواضحة لا لبس فيها، وقامت على الأساس الذي وضع العرب من أجله التشبيه، وهو توضيح المشبه، وإظهاره على أفضل صورة ممكنة. ومن التشابيه التي استخدمها هؤلاء الشعراء. قول ابن منير الطرابلسيّ في مدح نور الدّين زنكي، وبيان أعماله في رمضان[1]:

جهادُ ليلٍ في نهارٍ فَفُزْ إذْ كنتَ فيه الأصبرَ الأشكرا

فهو يستخدم التشبيه البليغ فيشبّه الصيام في النهار والصبر على مشاقه بالجهاد، وكذلك قيامه ليل رمضان بالصّلاة، والذكر بالجهاد.

ويلجأ بعض الشعراء إلى التشبيه المقلوب؛ فيجعلون المشبّه مشبهًا به، فتخرج الصورة التي يرسمونها مثيرة للتساؤلات حول مدى توافر هذه الصفات في المشبه، ولكنّها تؤدي بالمتلقي للوصول إلى أقصى غاية ممكنة في توافر الصفات المذكورة في الممدوح، ومن ذلك قول ابن قزل من قصيدة مدح فيها السلطان الناصر يوسف بن محمد بن الظاهر غازي، ويشبه رمضان بممدوحه[2]:

شهرٌ لَهُ الفضلُ والفخارُ كما ليوسف الفضلُ بالنّدى الغَمْرِ

فهو يشبّه فضائل رمضان المبارك، ومكارمه على عباد الله الصّالحين بعطاءِ السلطان الممدوح، وتفضّله على رعيّته.

ومثله قول ظافر الحدادّ في مدح قاضي الإسكندرية، وتهنئته بمقدم شهر رمضان المبارك[3]:

شهرُ الصيامِ بكَ المهنّا إذْ كان يُشْبِهُ منكَ فنّا

فالشاعر يشبّه شهر رمضان المبارك، وما فيه من صفات، ومعان خيّرة بقاضي الإسكندرية.

ويكثر الشعراء الذين وصفوا رمضان، أو تأثروا به في القرنين السادس والسابع الهجريين من استخدام التشبيه المفرد في تصوير معانيهم، وأفكارهم ليسهل نقلها جليّة واضحة للمتلقّين، وذلك هو أبسط أنواع التشبيه وأسهله، ومن ذلك قول أسامة بن منقذ في مدح نور الدّين زنكي[4]:

أيامُهُ مثلُ شهرِ الصّومِ خاليةً عن المعاصي وفيها الجوعُ والعطشُ

فهو يشبه أيام نور الدّين بأيام شهر رمضان الفضيل بجامع خلوها من المنكرات والمعاصي، وشيوع الجوع والعطش فيها (الزهد).

[1] ابن منير الطرابلسي، مصدر سابق، ص96.

[2] ابن قزل، مصدر سابق، ص22.

[3] العماد الأصفهاني، مصدر سابق، 1/5.

[4] أبو شامة المقدسي، مصدر سابق، 1/229.

ومثله قول العماد الأصفهاني يمدح السلطان صلاح الدّين الأيوبيّ عندما فتح قلعة بعلبك وصادف أن كان يوم الفتح في شهر رمضان[1]:

فتحٌ تسـنّى في الصِّـيام كأنّنا شُـكراً لما منح الإلـهُ صـيامُ

فقد شبّه صيام الناس في شهر رمضان الذي تيسّر فيه الفتح بصيام الشكر لله على نعمة الفتح التي أنعم بها الله، تعالى، على السلطان صلاح الدّين.

ومنه قول محمد بن فارس المصري من قصيدة مدح بها الوزير عبد الله الدميريّ، وهنأه بشهر الصوم[2]:

وكُنْ واحدًا في أهلهِ مثْلَما غدت وحيدَةَ أَلفٍ مثلهُ ليلةُ القدرِ

فقد شبّه تفرّد الوزير الدميري وسط أقرانه من الوزراء بتفرّد ليلةِ القدرِ بين الليالي.

وتوجد تشابيه مفردة كثيرة في الشعر الذي قاله الشعراء في وصف رمضان، ومنها: تشبيه القطائف وهي مقلية بالحروز المفضّضة، والتعاويذ المذهبّة، وتشبيه ظهور القطائف على الموائد في رمضان بالكثبان الرملية. وقد أقام ابن قزل قصيدته في وصف القطائف المدوّرة على التشابيه المفردة، فكانت أفضل وسيلة لتوضيح الصور التي كان يريد أن ينقلها للمتلقّين[3].

والحقيقة أن تلك الصور قامت على الوصف المباشر، واستخدمت ألفاظًا سهلة وواضحة، ومستقاة – بعامة- من المعاني الدينيّة، التي تسود في شهر رمضان من مثل: الصيام جهاد في الليل والنهار، ويحتاج إلى الصبر وشكر الله على إعانته العبد المسلم في صيام الشهر، وليلة القدر خير من ألف شهر، وأيام شهر الصوم تخلو من المعاصي، وفيها جوع وعطش وغيرها كثير[4].

ولم يكتف الشعراء الذين وصفوا شهر رمضان المبارك وآثاره بتوضيح صورهم الشعريّة، بل اهتمّوا بتزيينها وتنميقها، وتسهيل قبول المُتَلقّينَ لها، ومن أجل ذلك استخدموا كثيرًا من ألوان البديع، ومنها: الطباق، وفيه يزيد وضوح الأشياء بظهور تضادها، ومن ذلك: (صام: أفطر، سعى: قصّر،

[1] ابن واصل، مصدر سابق، 2/30.

[2] ابن الشعّار، مصدر سابق، م5ج4/167.

[3] انظر: العماد الأصفهاني، مصدر سابق، 1/63، ابن قزل، مصدر سابق، ص175-174، على التوالي.

[4] انظر: ابن منير، مصدر سابق، ص96، ابن الشعّار، مصدر سابق، م5ج4/167؛ أبو شامة المقدسي، مصدر سابق، 1/229، على التوالي.

عرض: جوهر) و (الخطايا: الأجر)، و(الصوم: الفطر، عيد سعادة: حرام)، و (الفصحاء: لكنا)، و (مقعد: مقيم، لها: عليه). و (جحيم: نعيم)، وغيرها[1].

كما استخدموا الكناية بأنواعها من أجل زيادة حب الاطلاع عند المتلقّين، وصونًا لألسنتهم عن البوح ببعض الكلمات، التي لم يجدوا من المناسب قولها في مواقف محدّدة، ومن ذلك: (لابسًا ثوب البقاء كناية عن طول العمر، ودوام الذكر، وشرب ابنة العنب كناية عن الخمر، وجنة السغب كناية عن الجوع، والصوم عيد سعادة كناية عن فرح المسلمين بعيد الفطر في نهاية رمضان)[2].

واستخدم عدد من الشعراء الجناس لزيادة موسيقى الشعر الداخلية، وتسهيله على المتلقّين، ومن الجناس التام: قبح الله آبَ ما آبَ شهرًا. فآب الأولى هو شهر آب المعروف بشدّة حرارته، والثانية بمعنى رجع. ومن الجناس غير التام. أيّ شهر أظلَّ لا وارف الظّل. فأظلّ الأولى بمعنى خيمّ، والثانية بمعنى أثر الأجسام على الأرض[3].

كما استخدم بعضهم التورية، ومن ذلك قول الجزّار[4]:

فلا تسُوموني حضوراً سِوى في ليلة الأنفالِ والمائدة

فالأنفال والمائدة: سورتان من سور القرآن الكريم، وهذا هو المعنى القريب، وهو ليس المقصود، ومعناهما البعيد الغنائم وموائد الطعام، وهو المعنى المقصود، واستخدم آخرون تأكيد الذم بما يشبه المدح كما في قول تاج الملوك بوري[5]:

مَرَضان فيه تخالفا فنهارُهُ سُلٌّ ولكنْ ليله استسقاءُ

[1] انظر: ابن منير، مصدر سابق، ص96-95؛ ابن قزل، مصدر سابق، ص22؛ ابن واصل، مصدر سابق، 2/30؛ العماد الأصفهاني، مصدر سابق، 1/6؛ ابن سعيد المغربي، مصدر سابق، ص288؛ ابن الساعاتي، مصدر سابق، 2/399، على التوالي.

[2] انظر: ابن الشعّار، مصدر سابق، م6ج7/236؛ العماد الأصفهاني، مصدر سابق، 1/62؛ ابن واصل، مصدر سابق، 2/30، على التوالي.

[3] انظر: ابن الساعاتي، مصدر سابق، 2/399.

[4] ابن تعزي بردي، مصدر سابق، 7/679.

[5] عبد الهادي، حسن، مرجع سابق، ص180.

الخاتمة

يلاحظ مِمّا سبق أنّ شهر رمضان المبارك، كان له صدى واضحًا في شعر شعراء القرنين السادس والسابع الهجريين، وقد ظهر ذلك الأثر في ثمانية محاور رئيسة، فاستقبلوا شهر رمضان بفرح وسرور، واستغلّ بعضهم مَقْدمه لمدح الخلفاء، والسلاطين، والأمراء، والوزراء، وتهنئتهم به، فيما استغلّه بعضهم الآخر لإعلان التوبة، والحثِّ على الصبر على مشاق الصَّوم، وصعابه، في سبيل الحصول على مرضاة الله، سبحانه وتعالى.

وسجّل عدد من الشعراء بعض الأعمال، التي كان المسلمون يقومون بها في رمضان بخاصة، من مثل: صلاة التراويح، والسّمر، والسّحور، وصناعة الحلويات. كما وصف عدد من الشعراء مقدم عيد الفطر، واتّخذوه فرصة لتهنئة أهل الحكم والأصدقاء بهذا العيد السعيد.

ومقابل ذلك كلّه ظهر عدد قليل من الشعراء، الذين أبدوا ضيقهم بشهر رمضان وضجرهم به، وبما فيه من انقطاع عن الملذّات، وما يسبّبه للصّائم من جوع وعطش.

وقد جاء شعر الشعراء في أغلبه سهل الألفاظ، حسن التراكيب، فيما كانت تشبيهاتهم واضحة استمدُّوها من البيئة الرَّمضانية، التي كانوا يعيشونها. وأنّ غالبية ما قاله الشعراء في رمضان جاء ضمن قصائد مدحيَّة، وما قيل في قصائد أو مقطّعات مستقلّة، كان في وصف الحلويات، أو الضّجر برمضان.

المصادر والمراجع

أولاً- المصادر

القرآن الكريم.

الأبشـــيهي، محمد بن أحمد. **المســـتطرف في كل فن مســـتظرف**. ج. 2. طبعة جديدة منقحة بإشراف المكتب العلمي للبحوث، بيروت: دار مكتبة الحياة، 2001-2002.

الأبيوردي، محمد بن أحمد. **الديوان**. ج.2. ط.2. تحقيق عمر الأسعد. بيروت: مؤسسة الرسالة، 1407/1987.

ابن تَغْرِيْ بَرْدِي، أبو المحاســـن يوســـف. **النجوم الزاهرة في ملوك مصـــر والقاهرة**. ج.1. ط.1. القاهرة: دار الكتب المصرية، 1355/1935.

ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي. **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**. ج.4. رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه محمد فؤاد عبد الباقي، قرأ أصله تصحيحًا وتحقيقًا عبد العزيز بن عبد الله بن باز. بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، د.ت.

ابن الساعاتي، علي بن محمد. **الديوان**. ج.2. ط.1، تحقيق ونشر أنيس المقدسي. بيروت: المطبعة الأمريكانية، (منشورات كلية العلوم والآداب، سلسلة العلوم الشرقية: الحلقة السادسة عشرة، الجامعة الأمريكية)، 1939.

ابن ســـعيد الأندلســـي، علي بن ســـعيد. **النجوم الزاهرة في حلي حضـــرة القاهرة**. ط.2. تحقيق حسين نصار. القاهرة: دار الكتب المصرية، 2000.

أبو شـامة المقدسـي، عبدالرحمن بن إسـماعيل. **الروضـتين في أخبار الدولتين**. ج.1. بيروت: دار الجيل، د.ت.

ابن الشـــعّار، المبارك بن أحمد. **قلائد الجمان في فرائد شـــعراء هذا الزمان المشـــهور بعقود الجمان في شـعراء هذا الزمان**. م.3. ج.4. م.6 ج.7. ط.1. تحقيق كامل الجبوري، بيروت: دار الكتب العلمية، 1426/2005.

الصـفدي، خليل بن أيبك. **الغيث المسـجم في شـرح لامية العجم**. ج.1. ط.1. بيروت: دار الكتب العلمية، 1395/1975.

صفي الدين الحلي، عبد العزيز بن سرايا. **العاطل الحالي والمرخص الغالي**. ط.2. تحقيق حسين نصـــار. القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، (الإدارة المركزية للمراكز العلمية، مركز تحقيق التراث)، 1424/2003.

ابن ظافر الأزدي، علي بن ظافر. **بدائع البدائه**. ط.1. تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم. صيدا-بيروت: المكتبة العصرية، 1413/1992.

ابن أبي عذيبة، أحمد بن عمر. **إنسان العيون في مشاهير سادس القرون**. ط.1. تقديم وتحقيق إحسان الثامري ومحمد القدحات. بيروت: دار ورد للنشر والتوزيع، 2007.

العماد الأصفهاني، محمد بن محمد. **خريدة القصر وجريدة العصر: قسم شعراء الشام**. ج.2. تحقيق شكري الفيصل، دمشق: المطبعة الهاشمية، (مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق). 1378/1959.

العماد الأصفهاني، محمد بن محمد. **خريدة القصر وجريدة العصر: قسم شعراء مصر**. ج. 1. 2. نشره أحمد أمين وزميلاه. القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1951.

ابن العماد الحنبلي، عبد الحي. **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**. ج.5. بيروت: دار الآفاق الجديدة، (ذخائر التراث العربي)، د. ت.

ابن قزل، علي بن عمر. **الديوان**. تحقيق ودراسة مشهور الحبازي. القدس: مركز التعاون والسلام الدولي، (سلسلة القدس مركز إشعاع حضاري:1). 2002 /1423.

المحبي، محمد الأمين بن فضل الله. **قصد السبيل فيما في اللغة العربية من الدخيل**. ط.1. تحقيق عثمان الصيني. الرياض: مكتبة التوبة، 1994.

المقريزي، أحمد بن علي. **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**. ط.1. ج. 3. تحقيق محمد زينهم وزميلته. القاهرة: مكتبة مدبولي، (صفحات من تاريخ مصر: 3/39)، 1998.

ابن منظور، محمد بن مكرم. **لسان العرب**. ج.3.4.7.9.10.12. بيروت: دار صادر، د. ت.

ابن منير الطرابلسي، أحمد بن مفلح، **شعر ابن منير الطرابلسي**، ط.1. جمع وتحقيق سعود عبدالجابر. الكويت: دار القلم، 1402/1982.

ابن مودود الموصلي، عبد الله بن محمود. **الاختيار لتعليل المختار**. ج.1. ط.3. بيروت: دار المعرفة، 1395/1975.

ابن النبيه المصري، علي بن محمد. **الديوان**. ط.1. تحقيق عمر الأسعد. بيروت: دار الفكر. 1969.

النيسابوري، مسلم بن الحجاج. **الصحيح**. ط.1. تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي. القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، 1955/1374.

ابن واصل، محمد بن سالم. **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب**. ج.2. تحقيق جمال الدين الشيال. بيروت: دار الفكر العربي، 1376/1957.

ثانياً- المراجع

الزركلي، خير الدين. **الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين**. ط.11. ج.4 . بيروت: دار العلم للملايين، 1995.

سابق، السيد. **فقه السنة**. م.1. بيروت: دار الكتاب العربي، د.ت.

سلام، محمد زغلول. **الأدب في العصر الأيوبي**. القاهرة: دار المعارف، 1983.

سلام، محمد زغلول. **الأدب في العصر المملوكي**. ج.2. القاهرة: دار المعارف، 1980.

الصابوني، محمد علي. **الفقه الميسر في ضوء الكتاب والسنة؛ فقه العبادات**. ج.2. صيدا- بيروت: المكتبة العصرية، 1424/2003.

عبد الهادي، حسن. **دراسة شعر تاج الملوك بوري بن أيوب مع تحقيق ديوانه**. عمّان: دار الينابيع للنشر والتوزيع، 1997.

الهاشمي، أحمد. **ميزان الذهب في صناعة شعر العرب**. بيروت: دار الكتب العلمية، 1399/1979.